نور الدين العلوي | نشر في ٨ مايو ٢٠٢٢,

ماذا ربح اليسار العربي من حربه على الإسلاميين؟

هي حرب مهما خففنا من وصفها ستظل حربًا مستعرة منذ الاستقلال عن الاستعمار المباشر في الخمسينيات في كل قطر عربي، لم تعرف هدنة حتى عندما كان الإسلاميون يغيبون في السجون لعقود طويلة، كم كلفت هذه الحرب الأقطار العربية وشعوبها؟ كم خسرت هذه الشعوب من وقت ومال وطمأنينة نتيجة هذه الحرب؟ سؤال الكلفة أكبر من قدرتنا على التقدير، لكننا نحاول منذ وقت طويل فهم الأسباب التي اتخذ على أساسها اليسار العربي الماركسي والقومي بكل تنوعاته الحزبية والثقافية موقف رفض مطلق للتعايش مع الإسلاميين بل التفرغ عمليًا لمطاردتهم من كل موقع يظهرون فيه، وهل ما زالت هذه الأسباب قائمة؟

الحالة التونسية حالة مدرسية

أعني أن اليسار التونسي في علاقته بالإسلاميين بتونس يمكن اعتباره نموذج تحليل مثالي لهذه العلاقة العدوانية التي تشق الساحات العربية السياسية منها والثقافية، وقد قرأت ليساريين عرب زمن بن علي يغبطون اليسار التونسي على فلاحه في محق الإسلاميين، لكن هل محقهم فعلًا أم محق نفسه؟

سبق اليسار الإسلاميين إلى الجامعة لأسباب كثيرة ليس هذا مكان عرضها، لكن لم يتأخر الإسلاميون في الظهور والمنافسة على الساحة الطلابية، ومنذ أواسط السبعينيات تقريبًا توقف اليسار عن معارضة السلطة الحاكمة عمليًا وتفرغ لحربه على (الخوانجية)، فصنفهم في الرجعية ووصمهم بالظلامية واحتكر لنفسه وصف التقدمية وقاد معركة دامية دفع فيها الإسلاميون أثمانًا باهظة من أرواحهم وأجسادهم.

كانت بين مكونات اليسار خلافات عميقة وكان العنف بينهم حاضرًا، لكن نقطة الإجماع الوحيدة لديهم هي محاربة التيار الديني الرجعي الظلامي ومنعه من الوجود.

لا نجد تيارًا فكريًا وسياسيًا منتظمًا وفاعلًا بما قد يجعلنا نستنتج أن حرب اليسار مع الإسلاميين هي حرب سياسية على قاعدة التنافس السياسي

لقد كانت السلطة تراقب هذه الحرب ولا تتدخل، بل نعتقد أنها صبت عليها النار في ردهات كثيرة لتؤججها وتغنم من خلالها سلامًا يسمح لطبقة المال والأعمال أن تعمل في هدوء، ومن هذه الزاوية تظهر حرب اليسار حربًا بالوكالة تديرها السلطة لمصلحة طبقتها الحاكمة، لكن ماذا يقبض اليسار بالمقابل؟

يسار من الموظفين ليس أكثر

اليسار الذي نراه أمامنا بعد نصف قرن من الحديث اليساري – ولا أقول التفكير – نراه فقيرًا وبعضه بائس، ورغم الخدمات التي يقدمها لطبقة رأس المال هل أشتغل بالمجان؟ نعم تقريبًا إننا نجد منه نخبة جامعية ونخب تحتل مواقع الفعل الثقافي وتسيطر على الذوق وتصنعه على هواها غالبًا. مجموعة موظفين كبار يتمتعون بمنافع الإدارة مثل السيارة الإدارية ووصولات البنزين خاصتها، لكننا لا نجد تيارًا فكريًا وسياسيًا منتظمًا وفاعلًا بما قد يجعلنا نستنتج أن حرب اليسار مع الإسلاميين هي حرب سياسية على قاعدة التنافس السياسي.

ليست هذه الحرب في جوهرها إلا دفاع موظف صغير عن كرسيه أن يسحبه من تحته منافس أقوى منه، بعيدون نحن هنا عن خطاب التقدمية والنضالية اليسارية ورثة كل المجد اليساري المقاوم للإمبريالية، فاليساري التونسي من هذه الزاوية موظف يضع ربطة عنق أنيقة ويغطي رأسه بقلنسوة تشي جيفارا وكانت السلطة تعرف ذلك معرفة يقينية فتركت باب التوظيف الراقي مفتوحًا لليسار مثل تمليكه بلا وثيقة لجان الانتداب في الجامعة ولجان توزع الدعم السينمائي والمسرحي في وزارة الثقافة، فقد استعمل اليسار هذه المواقع لمحاربة الإسلاميين، لكن لم نر له مكاسب مادية أو سياسية ذات بال.

الموظف الوظيفي

هل هو خيار مدروس ضمن الحرب؟ أن يمسك اليسار مفاصل الإدارة والثقافة ويحرم منها الإسلاميين؟ نظن أنه الخيار الوحيد الذي سمحت به السلطة وطبقتها المتحكمة فعلًا في البلد، ما نلاحظه في الحالة التونسية واتضح أكثر بعد الثورة أن هناك هدنة دائمة بين المؤسسات الاقتصادية الخاصة واليسار المالك الحصري للنقابات، وهذه النقابات حاربت بقوة كل حكومة كان فيها وجود إسلامي وخربت مرحلة العشرة من أجل أن لا يكون هناك إسلامي في السلطة، لكنها لم تحدث خدشًا بسيطًا على واجهة مؤسسة اقتصادية خاصة، فهل هناك خوف حقيقي من الإسلاميين في السلطة حتى يتحالف عليهم رأس المال مع النقابات؟

الإضرابات التي تفتعلها النقابة اليسارية كانت تتم في القطاع المهني الذي ترعاه وزارة فيها وزير إسلامي أو غير معاد للإسلاميين

نميل إلى النظر من هذه الزاوية، الإسلاميون عنصر طارئ في معادلة توزيع منافع السلطة، ووجوده الكثيف يربك عملية تقسيم المنافع فضلًا على أنه قوي ويمكنه الاستيلاء خاصة بأسلوب الصندوق الانتخابي فهو لعبته المفضلة، لذلك وجب منعه بكل السبل من الوصول إلى السلطة بعد أن ترسخ فشل القضاء عليه ودفنه.

تكفل الموظف اليساري بهذا الدور الوظيفي بعد الثورة خاصة، ونتذكر جيدًا والتاريخ لا شك سجل في دفاتره أن الإضرابات التي تفتعلها النقابة اليسارية كانت تتم في القطاع المهني الذي ترعاه وزارة فيها وزير إسلامي أو غير معاد للإسلاميين، لقد كان الأمر مفضوحًا أمام كل مراقب، فماذا ربح هذا الموظف الوظيفي؟ لقد حافظ على موقعه وراتبه وسيارته الإدارية.

هل ستستمر هذه المعركة مستقبلًا؟

إن عمر الفَرَاد من عمر الدابة التي يمتص دمها، فإذا هلكت هلك على إثرها، ونرى الدابة/الدولة في

حالة تنذر بفناء قريب إلا بمعجزة، وأعتقد أن التفاف اليسار الوظيفي حول قيس سعيد خاصة بعد انقلابه على المسار الديمقراطي علامة على أن الموظف الوظيفي يستشعر كرسيه يرتجف تحته وأن دوره قد ينتهي بنهاية من يستخدمه.

لقد وصل كثير من الناس إلى طرح السؤال عن جدوى هذه المعركة وما دخل المواطن بها؟ لقد اهتزت صورة اليساري التقدمي حامي المجتمع من الرجعية والظلامية، وفي مواقع كثيرة رمم آخرون صورة الإسلامي (مرادف الإرهابي) التي خربها الإعلام اليساري، فقد كانت شحنة الحرية التي اخترقت البلد بعد الثورة بمثابة نور باهر فضح أكاذيب كبيرة كان الناس ملفوفين داخلها كما يلف رضيع في قماط.

ويشعر كثيرون الآن أنهم غير معنيين بهذه المعركة وأنه يمكنهم بناء علاقة خاصة (على كيفيهم) مع الإسلاميين دون المرور بإعلام اليسار وخطابه، وهذه في تقديري ضربة قاضية لليسار الوظيفي ولمن يستخدمه، إنها الضربة التي تنهي دور اليسار وتعيده إلى حقيقته البسيطة، إنه ليس يسارًا وإن ادعى.

انتهت المهمة يا رفيق وقد سرع بنهايتها انقلاب السيسي في مصر وانقلاب قيس سعيد في تونس، ويجري الآن حديث مباشر بين طبقة رأس المال والإسلاميين في أفق تقاسم السلطة دونك، ولا تنس أن نظام الوظيفة ينتهي دومًا بتقاعد.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/44064/